تفريغ محاضرة:

مَدْخَلٌ إلى دِرَاسَةِ عِلْمِ الأديان

للشيخ: سلطان العميري

١٤٣٨هـ - ٢٠١٧

[فريق التفريغ]

المواضيع

المواضيع ٢
مقدمة ٤
- ما المراد بالمدخل؟ ٦
- مكونات المحاضرة ٧
- المسألة الأولى: مفهوم علم الأديان ٩
- المسألة الثانية: أسماء علم الأديان ١١
- المسألة الثالثة: مكوّنات علم الأديان ومباحثه ١٢
  - القضية الأولى: حقيقة الدِّين وطبيعته ١٤
  - القضية الثانية: تاريخ الأديان ١٥
  - القضية الثالثة: مقارنة الأديان ١٦
- المسألة الرابعة: أهمية علم الأديان ١٨
- المسألة الخامسة: مشروعيَّة علم الأديان ٢٢
- المسألة السادسة: علم الأديان عند علماء الإسلام ٢٩
  - المنهج الأول: المنهج الوصفي المجرَّد. ٣١
  - المنهج الثاني: منهج المقارنة النَّقديّ. ٣٢
  - المنهج الثالث: منهج النَّقد التَّفصيلي. ٣٣
- المسألة السابعة: قصة علم الأديان في الفكر الغربي ٣٦
  - نشأة علم الأديان في الغرب ٣٧
  - القضية الثانية: اتجاهات علم الأديان في الفكر الغربي ٣٨
- المسألة الثامنة: الإشكاليَّات المنهجية التي وقع فيها علماء الغرب في دراسة علم الأديان ٤٢

- الإشكالية الأولى: الاعتماد على المعلومات الناقصة في دراسة الأديان وتحليلها. ٤٣
- الإشكالية الثانية: الانطلاق من أن الأديان مُنتَج إنساني ٤٤
- الإشكالية الثالثة: الانطلاق من المساواة بين الأديان ٤٤
- الإشكالية الرابعة: ضبابية الموضوع ٤٥
- الإشكالية الخامسة: الانطلاق من المادية والمعاداة للأديان ٤٦
- الإشكالية السادسة: الاعتماد على فرضية التطور ٤٧
- الإشكالية السابعة: تزعزُع الركائز الأساسية ٤٨
- الإشكالية الثامنة: اضطراب المناهج وتضاربها ٤٨
- الإشكالية التاسعة: الاختلال في قضية الأثر والتأثُّر ٥٠
- الإشكالية العاشرة: الخضوع للعنصريَّة ٥١

• المسالة التاسعة: الفروق المنهجية بين علم الأديان في المنظومة الإسلامية وعلم الأديان في المنظومة الغربية ٥٢
- الأول: من جهة مصادر المعلومات والتوثيق. ٥٢
- الفرق الثاني: معايير المقارنة بين الأديان. ٥٢
- الفرق الثالث: معايير الحكم على الأديان. ٥٣
- الفرق الرابع: من جهة الهدف والغاية من دراسة الأديان. ٥٣
- والجهة الخامسة: تحديد موضوعات الأديان ٥٤

• المسألة العاشرة: واقع علم الأديان في العالم الإسلامي ٥٥
• المسألة الأخيرة الحادية عشرة: كيف نطوّر علم الأديان؟ ٥٧
• أهم المراجع في دراسة علم الأديان ٥٨

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، وعلى آله وصحبه وسلَّم تسليمًا كثيرًا إلى يوم الدين.

أما بعد:

أولًا: أشكر الإخوة القائمين على الدورة الجميلة والرائعة بموضوعاتها وترتيبها وتنسيقها، وأسأل الله -سبحانه وتعالى- أن يُثيبهم على جهدهم وعملهم وحرصهم.

مقدمة

أمَّا بالنسبة للقائنا الليلة؛ فهو متعلِّق بعلم الأديان. والكلام في علم الأديان طويلٌ ومُتشعِّبٌ جدًا، ولكننَّا سنقدّم في هذه الليلة مقدّمة عن علم الأديان ولن ندرس علم الأديان نفسه، فهذه المحاضرة بإذن الله -عز وجل- عبارةٌ عن **مفاتيح إجماليَّة لدراسة هذا العلم**، والوعي بمتطلباته المنهجية والعلمية والبحثيَّة.

والمقصود الأول من هذه المحاضرة: رسم المسارات العامَّة والخطوط الأساسيَّة لدراسة علم الأديان، وليس المقصود منها الإجابة على كل التفاصيل التي تتعلَّق بعلم الأديان، فالهدف في هذه المحاضرة هو تحديد أهمِّ المسائل التي يتكوَّن منها علم الأديان، وأهمِّ القضايا التي ينبغي

على القاصِد لدِارسة علم الأديان أن يحرص على تعلُّمها، وليس المقصود في هذه المحاضرة أن نستوعب كل مسألة وما يتعلَّق بها من أفكار ومسائل ونحو ذلك.

ولهذا ستلاحظون أنَّنا في كثير من المسائل والقضايا أن نكتفي بالإشارة إلى صورتها ولا نُعرّج على تفاصيلها، وإنما نريد أن نبني المسارات العامة لهذا العلم.

وهذا العلم من **أصعب العلوم التي تُقدَّم بها المحاضرات التي هي بمثابة المقدِّمات**؛ وسبب ذلك أنَّه **علمٌ مشترَك بين الفكر الإسلامي والفكر الغربي**، الفكر الإسلامي يدرس علم الأديان والفكر الغربي يدرس علم الأديان، وأنتم تعلمون أنَّ هناك فروقًا جوهريَّة بين هذين المجالين، وهذه إحدى الصعوبات التي تتعلَّق بهذا العلم.

وقبل أن ندخل في تفاصيل ما سنذكره لا بدَّ أن نُنبّه على أنَّ علم الأديان يمكن أن يُعدَّ **من العلوم المهجورة في الخطاب الشرعي المعاصر**؛ فإنَّك لا تكادُ تجِد اهتمامًا كبيرًا به يليق بمكانته، نعم هناك اهتماماتٌ -ومنها هذه الدَّورة- ولكن لو وازنَّا بين الاهتمام الموجود وبين مكانة العلم سنجدُ أنه يُعدُّ من العلوم المهجورة.

وبالمناسبة علم الأديان ليس هو العلم الوحيد المهجور؛ هناك علوم أخرى مهجورة في التأصيل الشرعي المعاصر منها **علم الجدل والمناظرة**، فعلم الجدل والمناظرة من العلوم المهمة التي ينبغي علينا تفعُيلها وإرجاعُها من جديد، وهي أيضًا من العلوم المهجورة، لك أن تنظر في الدورات العلمية التي تُقدَّم في أنحاء العالم العربي، ربما لا تجد درسًا يتعلَّق بعلم المناظرة تأصيلًا وبناءً وتقعيدًا.

ومن العلوم المهجورة أيضًا في البناء الشرعي **علم فقه اللغة**؛ وأقصد بهذا العلم ليس هو النحو والبلاغة ونحوها وإنما علم تحليل اللغة وكيف يعمّق الإنسان تصوُّره عن لغة العرب ومعرفة أساليبها وانطلاقاتها ومعانيها، أيضًا هذا العلم من العلوم المهجورة، نحن ندرس كثيرًا علم النحو وندرس قليلًا علم البلاغة، لكن هناك مجالات أخرى في علم اللغة هي من العلوم المهجورة.

وإذا أردنا أن نُرجِع التَّجديد للعلوم الإسلامية ونقوّي المشروع الإسلامي الذي نقصد منه تغيير العالم كلّه، علينا أن نُرجِع هذه العلوم لأنها من المقوِّمات الأساسية في بناء المشروع الإسلامي.

• ما المراد بالمدخل؟

وقبل أن ندخل في موضوعنا لا بدَّ أن ننبه إلى تنبيه منهجيٍّ آخر وهو المراد بـ(المداخل)، ما المراد بالمداخل؟

المدخل اختلف الناس المعاصرون في بيان مفهومه، فذكروا كلمات ومعانٍ كثيرة، لكن يمكن أن نقول في تعريف المدخل: **هو المادة العلمية التي تكشِف عن مفهوم العلم المعيَّن –الذي وُضع له ذلك المدخل–، وطبيعته ومعالمه، وتكشف عن مسالِك التَّدرُّج في تعلُّمِه، وتُبصِّر القاصد إلى تعلُّمه بالمسارات الأساسية المُعِينة على ضبط تصوُّراته وأفكاره عن ذلك العلم.**

إذًا من هذا التَّعريف نُدرك أنَّ المدخل إلى العلوم لا يقصِد إلى شرح مسائل العلم وتفصيلاتها؛ وإنما يقصد إلى الكشف عن طبيعة العلم وماهيته، فهو إذًا لا يجيب على سؤال: (ما هو؟)، وإنما يُجيب على سؤال: (كيف هو؟). وهناك فرقٌ بين سؤال: (ما هو؟)، وسؤال: (كيف هو؟).

فالمدخل إلى دراسة علم العقيدة مثلًا لا يجيب على سؤال: (ما هي مسائل العقيدة وتفصيلاتها؟)، وإنما يجيب على سؤال: (كيف هو علم العقيدة؟ وكيف يُدرس؟). وكذلك الحال في المدخل إلى علم الفقه، وعلم أصول الفقه، وغيرها من المداخل.

وبناءً عليه فالمدخل إلى دراسة علم الأديان لا يجيب على سؤال: (ما هو الدين؟ وما الأمور التي يتكوَّن منها الدين؟)، وإنما يجيب على سؤال: (كيف هو علم الدين؟ وما هي معالمه؟ وكيف يُدرس؟).

• مكونات المحاضرة

وبناء على هذه المقدّمة المنهجيَّة فإن مدخلنا **مكوَّن من إحدى عشرة مسألة:**

- المسألة الأولى: مفهوم علم الأديان.
- المسألة الثانية: أسماء علم الأديان.
- المسألة الثالثة: مكونات علم الأديان وموضوعاتها.
- المسألة الرابعة: أهمية علم الأديان وخطره.
- المسألة الخامسة: مشروعيَّة دراسة علم الأديان عند علماء الإسلام.

- المسألة السادسة: علم الأديان عند علماء الإسلام.
- المسألة السابعة: قصة علم الأديان في الفكر الغربي.
- المسألة الثامنة: الإشكاليَّات المنهجية التي وقع فيها علماء الغرب في دراسة علم الأديان.
- المسألة التاسعة: الفروق المنهجية بين علم الأديان في المنظومة الإسلامية وعلم الأديان في المنظومة الغربية.
- المسألة العاشرة: واقع علم الأديان في العالم الإسلامي المعاصر.
- المسألة الحادية عشر: كيف نطور علم الأديان؟

تلاحظون في هذه المسائل الإحدى عشر أنها تُعدّ من أهمّ ما يُمكن أن يصوّر به علم الأديان، وهي تشمل الجانب الوَصفيّ في علم الأديان، والجوانب المنهجية، والجوانب النقديَّة؛ لأن علم الأديان –كما ذكرت لكم سابقًا– من العلوم التي تشترك فيها الحضارة الإسلامية والحضارة الغربية.

وهذه المسائل العشر تتعلَّق بها تفاصيل كثيرة جدًا لا يمكن أن نستوعبها في هذه المحاضرة، ولكننا سنحرص على أصول المسائل تصويرًا، وعلى تفصيل القول في بعض المسائل التي تُعدُّ مقدّمة أساسية.

• المسألة الأولى: مفهوم علم الأديان

علم الأديان عُرِّف بتعريفاتٍ كثيرة، ومن تلك التَّعريفات قول بعض الباحثين -وهو من أجمَعِها وأوضحها وإنْ كان فيه طول-، يقول في علم الأديان: **هو النشاط العقلي المنظَّم المهتم بدراسة الأديان نشأةً وتاريخًا وتطورًا وعقائد ومذاهب وطوائف، ويهتم بدراسة أثر الأديان وتأثيرها على الواقع الإنساني في جميع أبعادها وكافَّة جوانبها، دراسةً تقوم على مناهج علمية تعتمد على مصادر أساسية، وتهدف إلى الفهم والمعرفة قبل النقد والمقارنة.**

تلاحظون في هذا التعريف الطويل نسبيًا أن صاحبه أراد أن يستوعب جميع ما يتعلَّق بعلم الأديان؛ فذكر أولًا أنه نشاط منظَّم؛ يعني أنه علمٌ له قوانين محدَّدة، وأنه يتعلَّق بالأديان من جهة نشأتها ومن جهة تاريخها، ومن جهة تطوُّرها ومن جهة العقائد والمذاهب التي فيها. وأيضًا يهتم بأثر دراسة الأديان على الواقع، وهذا أحد الجوانب المتعلقة بالأديان، وكذلك يهتم بدراسة المناهج التي طُرحت في علم الأديان -وسيأتي معنى أنها مناهج متعدّدة-. وكذلك المصادر التي يُعتمد عليها في دراسة الأديان.

في هذا التعريف مع طوله هو من أفضل التَّعريفات التي عُرِّف بها علم الأديان. ومع ذلك يمكن أن نقول في تعريف علم الأديان أنه: **العلم الذي يتركَّز على دراسة الأديان من جهة حقيقتها وطبيعتها وتاريخها، ويهدف إلى التَّمييز بين أصنافها وتحديد خواصِّها.**

ومِيزة هذا التَّعريف الذي ذكرناه أنه يُراعي خصائص المنظومة الإسلامية؛ فمن الخصائص التي تعتمد عليها المنظومة الإسلامية: أن الأديان ليست سواءً؛ فبعضها صحيح وبعضها باطل. ومن الخصائص التي تعتمد عليها المنظومة الغربية: أن الأديان سواء لا فرق بين صحيحها وباطلها، يتعاملون مع الأديان من جهة واحدة.

وقولنا هنا: (العلم) يعني بالضرورة وجود منهجية؛ لأن العلم لا يكون علمًا إلَّا اذا وُجدت منهجيَّة وأصول كلية يعتمد عليها ذلك العلم، فكلمة (العلم) تُغني عن كثير من التفاصيل التي ذُكرت في التَّعريف السابق الذي نقلناه عن بعض الباحثين.

هذا فيما يتعلَّق بالمسالة الأولى: مفهوم علم الأديان.

ولعله ظهر لنا الآن ما هو الأمر الذي سنُقدم عليه، نحن سندرس علم الأديان ولن ندرس الأديان، هناك فرق بين علم الأديان والأديان، ومحاضرتنا: (مدخل إلى علم الأديان)، وليست مدخلًا للأديان، وهذا واضح من خلال التعريف الذي ذكرناه.

• المسألة الثانية: أسماء علم الأديان

علم الأديان عُرِف بأسماء متعدِّدة، من أبرزها: **(علم المِلل)**؛ وهذا الاسم مُشتَهِرٌ كثيرًا عند علماء الإسلام أكثر من غيرهم، بل لا يكاد يوجد عند غيرهم، فعلماء الإسلام يستخدمون هذا الاسم، بل يكاد يكون هو الاسم الوحيد الذي يستخدمونه.

الاسم الثاني: **(علم مقارنة الأديان)**؛ فهذا الاسم يُطلق كثيرًا في الدراسات الغربية، ويُقصد به كلُّ علم الأديان وليس المقارنة فقط، أي حقيقتها وماهيَّتها وتاريخها والمقارنة أيضًا. وهذا الاسم كان يُطلق على علم الأديان في القرن الثامن عشر الميلادي في الفكر الغربي، ولم يكن المقصود به فقط مجرَّد المقارنة، وإنما المقصود به جُملة عِلمِ الأديان؛ الذي يشمل البحث في حقيقة الأديان، والبحث في تاريخها، والبحث في المقارنة. وهو الاسم المعتمد -كما ذكرت- لكم في القرن الثامن عشر عن علماء الغرب.

الاسم الثالث هو الاسم الذي معنا: **(علم الأديان)** أو **(علم الدين)**.

إذًا هذه أبرز الأسماء التي تُطلق على علم الدين، هناك اسم آخر ظهر في القرن التاسع عشر، لكنه ليس مشتهرًا بكثرة، وهو: **(علم فلسفة الدين)**، ولكن هذا المصطلح وإن كان يُطلق أحيانًا على علم الدين نفسه إلَّا أنه في الغالب يُقصد به جزئيَّة معيَّنة من علم الأديان -كما سيأتي التعريف بذلك إن شاء الله-.

• المسألة الثالثة: مكوّنات علم الأديان ومباحثه

في هذه القضية تنوَّعت مسالك الدَّارسين في تحديد ما المسائل التي يشملها علم الدين، ومسالكُهم فيها تفريعاتٌ كثيرة، ونحن هنا وظيفتنا ليست توصيف ما يقوله الناس وإنما بيان ما ينبغي أن يُذكر؛ لأن الناس مختلفون في علم الأديان، مختلفون في مُنطَلَقاتهم، ومختلفون في توجُّهاتهم، وفي أديانهم، فكلٌّ يُحدِّد الموضوعات التي يراها بناءً على أصوله، ونحن سنُحدّد الموضوعات بناءً على أصولنا الإسلامية.

والموضوعات التي يشملها علم الأديان بناء على المنظومة الإسلامية يمكن أن تُحصر في ثلاث موضوعات أساسية:

- **الموضوع الأول: حقيقة الدين وطبيعته وخواصه.**

بين قوسين: (فلسفة الدين)، وسيأتي إن شاء الله معنا الكلام عن ذلك، هذه القضية الأولى تُسمّى في الدراسات الغربية فلسفة الدين.

- **الموضوع الثاني: تاريخ الأديان وتطوراتها.**
- **الموضوع الثالث: مقارنة الأديان والموازنة فيما بينها.**

إذًا علم الأديان يتكوَّن من هذه الموضوعات الثلاث الأساسية.

وهناك خلافٌ شديدٌ جدًا بين علماء الأديان وخاصة في الغرب في تحديد العلاقة بين هذه الأمور الثلاثة، هذه المكونات الثلاثة؛ فمنهم من يرى أنه لا فرق بين هذه الأمور الثلاثة وإنها كلها في الحقيقة مكوِّن واحد. ومنهم من يرى أن المكوِّن الأول يدخل في المكون الثالث، وهناك تفاصيل كثيرة تتعلَّق بهذه الجزئية.

ووجه صحَّة التقسيم الذي ذكرناه أنَّ هذا التقسيم الثلاثي مبنيٌّ على حقيقة وُجوديَّة، وهي أن **هناك فرقًا بين حقيقة الشي في ذاته وبين تاريخه وبين علاقته بالأشياء**؛ هناك فرق بين حقيقة الشيء وتاريخه، لا أحد يقول أنَّ تاريخ الشيء هو الشيء ذاته، ولا أحد يقول أن حقيقة الشيء هي المقارنة مع غيره، فهناك حقيقة تثبُت ثم يكون لها تاريخ ثم تُقارن بغيرها، وهذه هي الموضوعات الثلاث: حقيقة الدين؛ نبيّن حقيقة الدين وطبيعته، ثم نتحدَّث عن تاريخه وتطوراته، ثم نبيّن علاقة الأديان بعضها ببعض؛ لأن الأديان عبارة عن منظوماتٍ مختلفة.

ولعلَّ العلماء الغربيين لما أنكروا هذا التقسيم لأنهم يروون أن الأديان شيء واحد، لا فرق بين الإسلام وبين الأديان الخُرافيَّة عندهم، وهذه إحدى السَّقطات المنهجيَّة التي سيأتي إن شاء الله التنبيه عليها.

إذًا التقسيم الثلاثي الذي ذكرناه مسوَّغٌ ومُبرَّر لأنه مبنيٌّ على هذه الحقيقة الوجودية.

فهذه القضايا الثلاث هي القضايا التي يرجع إليها علم الأديان، فمن أراد أن يتخصَّص في علم الأديان، ويكون لديه وعيٌ حقيقي بعلم الأديان فعليه يركّز على هذه القضايا الثلاث.

والمشكل المنهجي في كثير من المقرَّرات الجامعية التي لدينا في العالم الإسلامي أنها لا تركّز على هذه القضايا الثلاث، فأنتم حين تنظرون في المقرَّرات التي تُسمَّى (مدخل إلى علم الأديان) في الجامعات، وتنظرون في المفردات لا تجدونها تستوعب هذه الأشياء الثلاثة، عادة ما تركز على المكوّن الأول: حقيقة الدين، تعريف الدين، الفرق بين الدين والملة، ونحو ذلك من هذه المسائل. وهذا لا شكَّ أنه ليس فاضلًا؛ الفاضل هو أن نستوعب العلم بكل مكوناته.

حتى تتَّضح صورة هذه القضية، وهذه المسألة هي من أهم المسائل في علم الأديان، دعونا نستعرض هذه القضايا الثلاث تعريفًا وتمثيلًا حتى تظهر الصورة بشكل واضح.

▪ القضية الأولى: حقيقة الدِّين وطبيعته

ويعبَّر عن هذه الحقيقة في الدراسات الحديثة الغربية بمصطلح (**فلسفة الأديان**)، وهذا المصطلح نقله بعض الباحثين العرب إلينا، وألَّفوا كتبًا كثيرة –سيأتي إن شاء الله ذِكر بعض أسمائها–.

ويمكن أن نعرّف هذه القضية الأولى من مكونات علم الدين فنقول: **هي الحقلُ المعرفيُّ الذي يتركَّز على دراسة حقيقة الدين ونشأته ومكوِّناته، وطبيعة شعائره وأهم الموضوعات والمسائل المندرجة ضمنه.**

إذًا هذا المكون يدرس هذه المسائل كلها، وبناءً على هذا التعريف فأهمُّ المسائل التي تدخل ضمن هذا الحقل الأول إحدى عشرة مسألة:

- المسألة الأولى: **مفهوم الدين وحقيقته.**
- المسألة الثانية: **نشأة الدين عند الإنسان وأسبابها.**

- المسألة الثالثة: **طبيعة نشأة الدين**؛ الأصل في الدين هل هو التوحيد أم الشرك؟
- المسألة الرابعة: **طبيعة منبع الدين**؛ هل هو قضية عقلية أم قضية نفسية عاطفية؟
- المسألة الخامسة: **وجود الله وكماله وبراهين ذلك**.
- المسألة السادسة: **النبوة والوحي وبراهينها**.
- المسألة السابعة: **التعبُّدات والتَّشريعات وطبيعتها**.
- المسألة الثامنة: **الجزاء والحساب والبعث والجنة والنار**.
- المسألة التاسعة: **علاقة الدين بالمصادر المعرفيَّة الأخرى**؛ العقل والعلم التجريبي والكشف والذوق، ما هي علاقة الدين بهذه المصادر؟
- المسألة العاشرة: **طبيعة اللغة الدينية**؛ هل هي اللغة الحقيقية واقعية أم هي لغة عِرفانيَّة مجازية؟
- والمسألة الحادية عشرة: **علاقة الدين بالأخلاق والقيم والمبادئ**.

وكل مسألة من هذه المسائل الإحدى عشرة فيها تفصيلات كثيرة لا تصلح أن تكون في محاضرة بين المغرب والعشاء، وإنما تصلح أن تكون في محاضرة بين أول الشهر وآخره! لأنها هي ما يتكوَّن منه علم الدين.

■ القضية الثانية: تاريخ الأديان

المكون الثاني من مكونات علم الدين: تاريخ الأديان.

ويمكن أن يُعرَّف هذا المكون فيقال في تعريفه: **هو الحقل المعرفي الذي يتركَّز على تتبُّع تاريخ الأديان وتحديد مراحلها التاريخية وأهم التحولات التي مرَّت بها.**

وهذا الحقل تندرج تحته مسائل كثيرة منها:

- **طبيعة المصادر التي يعتمد عليها في تحديد تاريخ الأديان**؛ ما هي المصادر؟ هل هي الأحافير أم الكتب الدينية أم ماذا؟ ما هي المصادر التي يُعتمد عليها في تحديد تاريخ الأديان؟ وفيها جدل وتفصيلات كثيرة جدًا.
- ومنها أيضا: **القيمة المعرفية لتلك المصادر**؛ هل هي مصادر دقيقة أم مصادر تقريبية؟ أو نحو ذلك من الأسئلة.
- ومنها أيضًا: **منهج التحليل الذي يُعتمد عليه في فهم تلك المصادر**؛ ما هو المنهج التحليلي الذي نعتمد عليه في تحليل المعلومات الموجودة في تلك المصادر؟

هذه كلها مسائل تندرج ضمن هذا الحقل، ضمن هذا المكوِّن، وفيها أيضًا تفصيلاتٌ ومناهجُ ومدارسُ كثيرة.

■ القضية الثالثة: مقارنة الأديان

ويمكن أن يُعرَّف هذا المكون فيُقال: **هو الحقل المعرفي الذي يتركَّز على دراسة نقاط الاتّفاق والافتراق بين الأديان، ويهدف إلى تمييز الصحيح من الخاطئ الباطل فيها.**

وهذا الحقل أو هذه القضية تندرج أيضًا تحته مسائل كثيرة منها:

- **طبيعة المقارنة وموضوعاتها**؛ ما هي الموضوعات التي تعتمد عليها المقارنة؟
- ومنها: **شروط المقارنة بين الأديان**.
- ومنها: **أهداف المقارنة بين الأديان**.
- ومنها: **المعايير التي يُعتمد عليها في المقارنة بين الأديان**.

وهذه المسائل فيها جدل كبير جدًا، وفيها فُرُوقات بين المنظومة الإسلامية والمنظومة الغربية.

إذًا هذه هي المكونات الثلاث التي يتكوَّن منها علم الأديان، فمن أراد أن يتخصَّص في علم الأديان ويكون لديه وعيٌ بهذا العلم فعليه أن يضبط هذه المكونات الخمس بمسائلها وما يندرج تحتها من تفاريع.

• المسألة الرابعة: أهمية علم الأديان

في هذه القضية أيضًا تعدَّدت مسالك الدَّارسين لعلم الأديان في تحديد الأمور التي تكشف عن أهمية الأديان، وكلُّ دارسٍ ينطلق من الرؤية التي يتبنَّاها في حياته؛ فمن كان ينطلق رؤية فلسفية تراه يُحدِّد الأهمية بناء على رؤيته الفلسفية، ومن ينطلق من رؤية الحادية مثلًا تراه يحدد دراسة علم الأديان بناء على رؤيته الإلحادية، ومن ينطلق من رؤية إسلامية تراه يحدد الأهمية بناء على رؤيته.

وبناء عليه فنحن سنُحدِّد أهمية علم الأديان بناءً على رؤيتنا الإسلامية، وأهمية علم الأديان يمكن أن نكشف عنها من خلال أربعة أمور:

الأمر الأول: **أن هذا العلم –أعني علم الأديان– يتعلَّق بأعظم شيء في حياة الإنسان وهو الدين**، فأنتم تعلمون أن الدين هو أخطر قضية في حياة الإنسان وأضخم مسألة في وجوده، وأجلُّ جزء من أجزائه وأهمُّ مكوِّن من مكوِّناته، وأنفَسُ عنصر من عناصره، وأغلى ما يمكن أن يملكه الإنسان في حياته..

إذًا نحن نتحدَّث عن موضوع مُتعلِّقٌ بأمر خطير جدًا في حياة الإنسان، فمن المهم جدًا أن يُركَّز النَّظر على هذا العلم لأهميَّة موضوعه، فالعلم هنا يشرُف وتأتي إليه الأهميَّة من جهة شرف وأهميَّة موضوعه.

الأمر الثاني: **أن علم الأديان من أقوى الأدوات التي تساعد على فهم طبيعة الأديان المنحرفة**، وبالتالي هو من أهم العلوم التي تُقدِّم أو تساعد تعطينا أدوات تساعدنا على التعامل الرَّشيد مع هذه الأديان، العالم مليء بالأديان، فيه أكثر من ثلاثة آلاف دين، وكل هذه الأديان منحرفة، ولا بد لنا نحن أهل الإسلام أن يكون لدينا تعاملٌ رشيدٌ مع هذه الأديان، ومن أفضل من يُقدِّم لنا الأدوات التي تساعدنا على تحسين هذا التعامل الرشيد أن يكون لدينا علم بعلم الأديان.

الأمر الثالث: **أن علم الأديان تعلُّمه وضبطه بطريقة صحيحة من أفضل المسالك التي تكشف لنا عن تميُّزات دين الإسلام**؛ لأن من أدوات أو مسالك طرق بيان فضل الإسلام أن تُبيِّن تهافُتَ ما يُقابله من الأديان، هناك أدوات أخرى نعتمد عليها وهي قوة الإسلام في نفسه هذا معطى، أو هذ أسلوب، ولكن هناك أسلوب آخر وهو أن نبيِّن للناس أن الأديان التي يلتزم بها العالم -كل العالم- أديانٌ لا تستحقُّ أن تكون دينًا، وإنما انظر إلى التَّميُّزات الموجودة في الإسلام! إذا أردنا أن نصل إلى هذا القَدْر؛ فعلم الأديان من أقوى المسالك التي توصلنا إلى هذا القدر، ولا شك أنه هدف شريف.

الأمر الرابع: مما يُبيِّن أهمية علم الأديان: **أن علم الأديان من أخطر الأمور التي استغلَّها المُعَادون للأديان في محاربتها**؛ فإنه لما ظهرت ظاهرة نقد الدين في الفكر الغربي في القرن الثامن عشر كانت أقوى الأدوات التي اعتمدوا عليها علم مقارنة الأديان، فأظهروا أن الأديان مختلفة في عقائدها وفي مصادرها ونحو ذلك، إذًا نحن أمام ركامٍ هائل كبير من الاختلافات فلا داعي أن نلتزم بهذه المنظومة الدينية!

ثم لما درسوا الأديان وجدوا أن كثيرًا من الأديان مبنيَّةٌ على الخرافة ومبنية على الأساطير، فجاءوا وأصدروا حكمًا عامًا، فقالوا: كل الأديان خرافية، إذًا هم استغلُّوا هذا المسار -الذي هو علم الأديان- فجعلوه تُكْأَةً لهم في نقد الأديان كلها، وبناءً عليه فإذا أردنا أن نتصدَّى للموجة الناقدة للأديان فعلينا أن ندرس علم الأديان ونضبط مسائله وتصوُّراته؛ حتى نكون علم في مسالك الحِجاج في هذا المجال -وإن شاء الله ستأتي معنا تفصيلات تتعلق بهذا الموضوع في المسائل القادمة-.

أيضًا من مما يندرج ضمن هذا الأمر الرابع: **أن علم الأديان مما استغلَّه المنحرفون في العالم الإسلامي في تأسيس رؤاهم المنحرفة**؛ فعلم الأديان من أقوى العلوم الذي استغلَّها الحَدَاثيُّون العرب في تأسيس مشروعهم التَّحديثيّ للإسلام -كما يقولون-، وهو في الحقيقة تحريف للإسلام.

فحسن حنفي مثلًا يرى أن المشروع الذي قدَّمه الفيلسوف الغربي المشهور اسبنوزا في نقده للأديان هو المقدمة الأولى للتحدَّيث التي يجب على كلّ العالم أن يسلكها، ثم قام بترجمة كتابه (رسالة في اللاهوت والسياسة)، وهذا الكتاب هو من أخطر الكتب الغربية التي أثَّرت في الفكر الغربي في النُّفْرَة من الأديان جُملةً؛ لأنه في هذا الكتاب قرَّر بأن النبوة لا حقيقة لها إنما هي قضيه نفسيَّة تصدر من داخل النبي فقط، تتأثر بمشاعره وعواطفه والأجواء التي يعيش فيها.

ثم نقد الكتاب المقدَّس، وهو يقول: "إني أتمنَّى أن أطبّق هذا المنهج على كل الأديان"، ثم قال في كتابه هذا: "إن منهجي هذا خطير على الأديان"، ويقول: "إني قدَّمت مادة قويه لأهل

الإلحاد"، هو يعترف بذلك، ثم أتى حسن حنفي ويرى أن هذا الكتاب هو المُنقِذ للعالم الإسلامي فترجمه إلى العربية!

وكذلك محمد أراكون كثيرًا ما يكرِّر في كتبه ويتحسَّر ويُظهر الحسرة بأن العالم الإسلامي لم يعرف النقد الديني حتى الآن، ولم يعرف علم مقارنة الأديان، ويرى أنه لا نجاة لنا من الاتجاه المحافظ هذا الذي يحرص على فهم القرآن والسنة كما أُنزل على النبي صلى الله عليه وسلم إلا بأن نُفعِّل أدوات كثيرة منها علم مقارنة الأديان.

إذًا الأمر خطير جدًا؛ وهو أنَّ هذا العلم استغلَّه المُنحرفون في محاربة الأديان، فيجب على أهل الأديان أن يتخصَّصوا في هذا العلم، ويُدركوه، ويكون لديهم وعي حتى يملكوا أدوات يمكنهم أن يتصدَّوا بها لهذه الظاهرة.

إذًا هذه أمورٌ أربعة تدل على أهمية علم الدين وخطورته.

• المسألة الخامسة: مشروعيَّة علم الأديان

هذه المسألة تنتقل إلى بُعد آخر؛ أنَّ علم الدّين ليس مهمًا فقط، بل هو مشروع في الشريعة، يعني ليس هو علم مباحًا فقط بل هو علم مأمور به، إما على جهة الإلزام أو على جهة الاستحباب.

والأصول الشرعية التي يمكن أن تدل على مشروعية دراسة علم الأديان كثيرة، ولكنَّنا سنقتصر على أصلين شرعيين:

الأصل الأول: **الأمر بالدعوة إلى الإسلام هذا**، أصل ضروري جدًا في نصوص الشريعة ولا يحتاج إلى بيان وذكر بالأدلة، فالله عز وجل -كما تعلمون- أمرنا بالدعوة إلى الإسلام بالحكمة والإحسان كما في قوله سبحانه وتعالى: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾؛ والمراد بالحكمة هنا: مخاطبة كل أحد بالطريقة التي تناسبه والتي تكون هي أنفع الطرق وأقربها إلى إحداث الإقناع لديه. والمراد بالإحسان: التزام أكمل الأوصاف في الجدل والمناظرة والدعوة، أكمل الأوصاف العلمية والأخلاقية.

إذًا نحن مأمورون بالحكمة التي تُراعي الظروف المختلفة، ومأمورون بالإحسان الذي هو الالتزام بكمال العلم وكمال الأخلاق. وإذا ثبت ذلك، فإذا أردنا أن نؤثّر في العالم فعلينا أن نلتزم في علم الأديان ويكون لدينا علم عميق به، لماذا؟ لأنَّ علم الأديان أشد العلوم التي تؤثر في الأديان

قبولًا ورفضًا، فإذا أردنا من الناس أن يقتنعوا بدين الإسلام علينا أن يكون لدينا إلمامٌ واسع وعميق بعلم الأديان، وهذا الأصل الشرعي يدل على ذلك في سبيل العموم.

الأصل الشرعي الثاني: **وجوب الدفاع عن الحق**؛ فكما أننا مأمورون بالدعوة إلى الحق فنحن أيضًا مأمورون بالدفاع عن الحق، فمن حقوق الإسلام على المسلمين أن يسعوا للدفاع عنه في كل الثغور التي تتعلَّق به، ومن أخطر الثغور التي يدخل إليها المُعَادون للأديان ثغر علم الأديان؛ ما يتعلَّق بحقيقة الأديان وطبيعتها، بل هو من أخطر الثغور، والواقع شاهد على ذلك، علينا أن ندافع عن الإسلام، فعلينا أن نقوم بسدِّ هذا الثغر بما يكفي من العدد وبما يكفي من العُدَّة.

إذًا هذان أصلان شرعيَّان يدُلَّان على أهمية علم الأديان، ويدلان أيضًا على مشروعيَّته في المنظومة الشرعية.

هناك طريقة مارسها بعض الباحثين المعاصرين في بيان مشروعية علم الأديان فذكر أخبارًا كثيرة جدًا عن السلف والصحابة –رضي الله عنهم– أنهم كانوا يناقشون أهل الأديان وأنهم كانت بينهم وبين أهل الأديان مناظرات؛ هذه الطريقة صحيحة ومقبولة لكن في النهاية لا تدل على جملة التعلُّم، وإنما تدلُّ على مشروعيَّة المناظرة في حدِّ ذاتها، والمناظرة بحد ذاتها قد تدل ولكنها لا تدل بطريقة مباشرة. الأصول التي تدل بطريقه مباشرة على المشروعية أزعم أنَّ منها الأصلين اللذين ذكرتُهما هنا.

تبقى قضية أخرى وهي: **هل هناك من يخالف في مشروعيَّة علم الأديان؟**

أنا في الحقيقة لم أقِف على قول أحدٍ من علماء الإسلام أو من الباحثين الإسلاميين، ولكن هناك بعض الباحثين نقل عن بعض الدَّارسين أنهم يقولون أن علم الأديان غير مشروع، ولا ينبغي لنا الخَوْضُ فيه، وذكر من حُجَجهم ثلاث حُجَج أساسية:

الحجة الأولى: أن الدين واحد عند الله، فكيف نقارن بينه وبين ما هو باطل؟! فكأن هذه الحجة تقول أن الدخول في مقارنة الأديان التي هي نوع من علم الأديان، كأنَّ فيه إقرارًا لتلك الأديان.

ولكن تلك الحجة غير صحيحة؛ لماذا؟ لأن المقصود بالمقارنة في المنظومة الإسلامية ليس بيان التَّفاضُلات فقط، وإنما أيضًا بيان الباطل منها، فمِن أقوى ما يُبيّن بُطلان الباطل هو مقارنته بالحق؛ وبضِدِّها تتبيَّنُ الأشياء صحةً وبطلانًا. فنحن حين نقارن بين الأديان لا نقتصر على مجرَّد المقارنة الوصفيَّة، وإنما لدينا بُعد آخر وهدف آخر، وهو أن نُثبت بطلان الأديان المنحرفة وصحة دين الإسلام.

وهذا الأسلوب -المقارنة- استُخدم في القرآن، وهناك إشارات في القرآن تدل على هذا المعنى، منها قول الله -سبحانه وتعالى-: ﴿آللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾، فهذه الآية تتضمَّن أنه يا أيها الناس قارِنوا بين ما أنتم عليه وبين الله -سبحانه وتعالى- في كماله وجلاله.

وأيضًا هناك مقارنات موجودة في القرآن حصلت بين ما هو باطل قطعًا وبين ما هو حق قطعًا، فأصلُ مجرَّد المقارنة لا يدلُّ بالضرورة على الإقرار بصحة ما وقعت المقارنة بينه. وبناءً عليه فهذه الحجة في نظري غير صحيح وغير مُلزمة.

الحجة الثانية: أنهم يقولون: كيف نناقش ونستشهد بما نعتقد أنه باطل؟ نحن نعتقد أن تلك الأديان باطلة، فكيف نستشهد بها على بعض المظاهر التحليليَّة التي يقوم عليها علم الأديان؟ فأنتم تريدون أن تحللوا علم الأديان وتاريخ الأديان والمنظومة الدينية، وتعتمدون على مصادر أنتم تعتقدون أنها باطلة، إذًا العلم يقوم على مواد باطلة؛ فإذا كانت المواد المعلوماتية التي يقوم عليها العلم باطلة فكيف ينبغي لنا أن نشتغل بما هو باطل؟!

ولكن هذه الحجة غير صحيحة؛ لأنَّ اعتقاد بطلان المواد لا يعني عدم الاشتغال ببيان بطلانها، فنحن حين نشتغل بهذه المواد لا نقصد إلى أن نستخرج منها موادَّ صحيحة نعتقدها في أنفسنا، وإنما نقصد منها إلى استخراج المواد التي تبيِّن بطلان الباطل، وأيُّ باطل قطعًا سيكون مُشتمِلًا على ما يُبيِّن بُطلانه، إما من تناقض أو فقدان أصلٍ من الصحيح أو غير ذلك من المسائل.

ثم هناك بُعدٌ آخر وهو بُعد التَّدرُّج مع المخالف؛ فنحن ندخل مع المخالف في هذه المواد لا لأننا نعتقد بأنها صحيحة وإنما من باب التدرج في الحوار معه والنقاش ومحاولة إقناع بما نحن فيه.

ومن ذلك قول الله –سبحانه وتعالى– : ﴿قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ﴾، هذه الآية تؤسِّس لهذا البُعد؛ أنه يمكن للإنسان أن يدخل مع أهل الباطل جدلًا من باب التسليم

الجدلي، ثم يُفتح الباب للحوار معه، وهذه الآية إحدى الآيات التي تدلُّ على مسالك الجدل والمناظرة التي يؤسِّس لها الإسلام.

الحجة الثالثة التي اعتمدوا عليها: أن علم الأديان علم غربي علماني، لا يؤدي إلا إلى هدم الأديان، فكيف ينبغي لنا أن نشتغل بهذا العلم؟!

لكن هذه الحجة غير صحيح؛ لأننا لا نُسلِّم أولًا بأن علم الأديان علم غربي، بل هو علم إسلامي -كما سيأتي معنا تفصيله-، ولكننا فرَّطنا فيه فاستغلَّه غيرنا وتوسَّع فيه.

ثم على القول بأنه علم غربي فنحن نشتغل بعلم الأديان لا لنحصِّل علمًا لا نعرفه؛ وإنما لنا أهداف أخرى ذكرنا بعضها مثل الدعوة للإسلام، وبيان تميُّزاته، وبطلان الأديان الأخرى.

فإن قيل: يُشكِل على تقرير المشروعيَّة حديث: أن عمر بن الخطاب -رضي الله تعالى عنه- أتى إلى النبي -صلى الله عليه وسلم- بكتاب أصابه من بعض أهل الكتاب، فغضب النبي -صلى الله عليه وسلم- وقال: (**أَمُتَهَوِّكُونَ فيها يا ابن الخطاب؟ والذي نفسي بيده لقد جئتكم بها بيضاء نقيَّة**)، فهذا الحديث يمكن أن يقال أنه يقطع الطريق على من يقول دعونا ندرس علم الأديان.

ولكن هذا الإشكال غير صحيح؛ ويمكن أن نبيّن عدم صحته من طريقين:

الطريق الأول: أن هذه القصة أصلًا ليست صحيحة، الصحيح أنها ضعيفة غير ثابتة، هذا وجه يكفي في بطلان هذا الإشكال.

ولكن يمكن أن يقال: **وعلى القول بصحتها**: فإن هناك فرقًا بين علم الأديان وبين ما في القصة؛ فعلم الأديان لا يبحث عن الحق حتى يُعتقد، والقصة محمولة على سؤال أهل الأديان عن الحق أو طلبًا للمعرفة الصحيحة، وتكملة الحديث وتكملة الحديث تدل على ذلك: (**إنكم لا تسألونهم عن أشياء فربَّما يكذبون فتقعون في الكذب**).

إذًا أنتم إن أردتم أن تبحثوا عن الحق في الأديان فنعم ينطبق عليكم هذا الحديث، ولكننا نحن في علم الأديان لا نقصد إلى بحث عن الحث؛ لأن الإسلام كافٍ في بيان الحق، وإنما نقصد إلى مقاصد أخرى لا تتعلق بهذا الحديث.

إذًا هذا الحديث غير مُشكل على مشروعيَّة علم الأديان.

وأريد أن أنبه على قضية أخرى وهي: **إنكار مشروعية علم الأديان ليس خاصًا بعلماء الإسلام فقط؛ بل هناك من علماء الغرب أو علماء الأديان الأخرى من أنكروا مشروعية الأديان**، ولكن لهم مُنطَلَق آخر، انطلقوا من جهة أن علم الأديان علم غير مُنضبِط، وهو يقوم على قضايا شُعُوريَّة وغير موضوعيَّة، فكيف يمكن أن ندرسه؟!

طبعًا هم انطلقوا كما تلاحظون من أن الدين ليس قضية برهانية موضوعية، وإنما هو عبارة عن مشاعر وعواطف، والمشاعر والعواطف لا يمكن أن تُدرس كما يقولون، فبناءً عليه لا مشروعية لهذا العلم.

وهذه القضية ليست خاصة بعلم الأديان بل نقلوها أيضًا لعلم النفس، فهناك علماء غربيُّون كثيرون يؤكدون على أن علم النفس ليس علمًا، وإنما هو انطباعات أو نحو ذلك.

وهذه الحجة في الحقيقة حجَّة داحضة؛ لأن الدين ليس قضية عاطفية، **وإنما هو قضية تصديقيَّة برهانيَّة وُجوديَّة**، وبناءً عليه يمكن أن يُدرس ولكن لا بد أن تتحدَّد معاييره الصحيحة.

• المسألة السادسة: علم الأديان عند علماء الإسلام

علم الأديان عند علماء الإسلام تتعلَّق به قضايا متعدَّدة، منها:

- اهتمام علماء الإسلام بعلم الأديان، وأدلَّة ذلك، هل كانوا مهتمّين بعلم الأديان أم غير مهتمين؟ وما هي الأدلة على ذلك؟
- المسألة الثانية: مناهج علماء الإسلام في دراسة علم الأديان.
- القضية الثالثة: أصول علماء الإسلام في دراستهم لعلم الأديان ومُنطلقاتهم؛ ما هي الأصول التي كانوا يعتمدون عليها في دراسة علم الأديان؟
- المسألة الرابعة: الأدوات البحثيَّة التي يعتمد عليها علماء الإسلام في دراسة علم الأديان.

هذه هي أبرز المسائل التي تتعلَّق بهذه المسألة، ولكننا لا نستطيع أن نُجيب على كل هذه القضايا لأنَّ فيها تفصيلات كثيرة، وإنما تنفع هذه القضايا في بيان المسارات العامة لعلم الأديان.

علم الأديان يُعدُّ من أكثر العلوم التي تتقارب فيه الفِرَق الإسلامية؛ فعلم الأديان لا تكاد تفرّق فيه بين المنهج الأشعري والمنهج المعتزلي، والمنهج الكُلَّابي مثلًا ومنهج أهل السنة والجماعة، يكادون يتقاربون في هذا العلم، لا تكاد تجد بينهم فروقات كبيرة منهجيَّة؛ لماذا؟ لأن

هذا العلم لا يتعلَّق بتفصيلات الإسلام ولا حتى أصول الإسلام، **وإنما يتعلَّق بأصول الأديان، وأصول الأديان هي محلُّ إقرارٍ بين عموم الفرق الإسلامية.**

وبناءً عليه ليس صحيحًا أن يُفرَّق بين الفِرَق الإسلامية في دراسة علم الأديان، الصحيح أو الأفضل والأكمل أن نقول أنَّ الفِرَق كلَّها تمثِّل منهجًا واحدًا أو منهجًا متقاربًا جدًا، سواء في أدوات التَّحليل أو في الأصول التي يعتمدون عليها -كما سيأتي التنبيه على ذلك- أو غيرها من الأدوات، هناك فروق مؤثرة ولكنها ليست كبيرة، أنا عبَّرت أنها متقاربة وليست متطابقة وهذا التعبير مقصود؛ أنها متقاربة جَدا.

وقد حاول بعض الباحثين المعاصرين أن يفصل بين منهج أهل السنة والجماعة وبين مناهج الفِرق الأخرى في دراسة الأديان، فقال: (فصل: منهج أهل السنة والجماعة في دراسة الأديان)، ثم قال: (فصل آخر: منهج الفرق المنحرفة في دراسة الأديان)، وحين تقرأ الفصلين لا تكاد تجد فرقًا، وتجد تعسُّفًا وتكلُّفًا شديدًا في شرح الفَرْق وهو كذلك، فلا فرق حقيقيًا بين الفِرق، فليس صحيحًا منهجيًا أن يُفصل بين المناهج العقديَّة في دراسة الأديان.

من القضايا التي يمكن أن يُنبَّه عليها في علم الأديان عند علماء الإسلام: أن علماء الإسلام لم يكونوا يستعملون اسم (علم الأديان) ولا (علم مقارنة الأديان) ولا (علم فلسفة الأديان)، وإنما كان الاسم الغالب لديهم هو (**علم المِلَل**)؛ (الملل والنحل) للشهرستاني، (الفِصَل في الملل والأهواء والنِّحَل) لا بن حزم، وغيرها من الأسماء الأخرى.

قد أقرَّ عددٌ من علماء الغرب بأن علماء الإسلام كانت لهم الرِّيادة والأسبقيَّة في دراسة علم الأديان بل والأُستاذيَّة، كان يعبّر بعضهم بأن أساتذتنا في علم الأديان هم علماء الإسلام، وقاموا بدراسات كثيرة على علماء الإسلام وكيف أنَّ لهم تقريرات ومناهج في غاية القوة والعمق في دراسة الأديان.

وهناك نصوص كثيرة جدًا صرَّحوا فيها وجمعها عبد الرحمن الشرقاوي في كتابه (بحوث في مقارنة الأديان)، ذكر عددًا من النُّقول التي تدل على الاعتراف بأسبقيَّة علماء الإسلام وأستاذيَّتهم في علم الأديان.

وهذه النقول إنما أشرتُ إليها لا لأننا نريد أن نتقوَّى بها، وإنما لأن هناك أناسًا أصلًا لدَيْنَا لا يرضون إلا إذا نُقِل الاعتراف عن الآخرين. وأيضًا لأن بعض تقريرات هؤلاء اشتملت على بعض الأدلة، يعني اشتملت على أدلة موضوعيَّة تدل فعلًا على تميُّز علماء الإسلام في مقارنة الأديان وفي علم دراسة الأديان.

ونحن سنركّز على قضية مهمة عند علماء الإسلام وهي: مناهج علماء الإسلام في دراسة الأديان، ونحن إذا أبرزنا المناهج سنكتشف بأن هذا المنهج أقوى ما يبيّن تميُّزات الجهود، وأيضًا من أقوى ما يبين عن الثَّراء المعرفي الذي كان لدى علماء الإسلام.

والمناهج التي اعتمد عليها وسلكها علماء الإسلام في دراسة الأديان متعددة أهمها ثلاثة:

- **المنهج الأول: المنهج الوصفي المجرَّد.**

الذي يقصد إلى وصف الأديان مجرَّدة من غير حكم.

ومن أبرز من يمثّل هذا المنهج البَيْرُوني في كتابه (تحقيق ما للهند من مقولة) فإنه ذكر في أول الكتاب أنه مجرَّد واصف، ولن يفعل شيئًا غير ذلك، وذكر أيضًا: إني ذهبت إلى الهند وتعلمت لغتهم ثم استخلصت منها ما يتعلَّق بأديانهم، وذكر عددًا من الأشياء منها منهجه والأدوات الذي اعتمد عليها والأساليب التي سلكها.

- **المنهج الثاني: منهج المقارنة النَّقديّ.**

ومن أبرز من يمثل هذا المنهج أبو الحسن العامري المتوفَّى سنه ٣٨١ في كتابه (الإعلام بمناقب الإسلام)، فهو في هذا الكتاب أراد أن يقارن بين الإسلام وبين أديان خمسة أخرى؛ دين اليهود والنصارى والمجوس والصابئة وأهل الإشراك، مع دين الإسلام، فقارن بين هذه الأديان فأظهر تميُّزات الإسلام على هذه الأديان الخمسة في ستة موضوعات.

وفي الحقيقة أن موضوع مشروع العامري هو مشروع شيّق ويستحق الصراحة أن نبيّن كثيرًا من تفصيلاته، ولكن هذا أصلُ فكرته، وقد أخطأ بعض المعاصرين في توصيف مشروع العامري فقال أنَّ مشروع العامري هو منهج الوصف المقارَن، وهذا غير صحيح؛ العامري لم يقصد مجرَّد المقارنة فقط وإنما سلك مسلكًا آخر وهو الذي أسميناه: (منهج المقارنة النقدي)، فهو يمارس النقد عن طريق المقارنة.

وأما توصيف المعاصرين أنه مجرد مقارِن بين الأديان، هذا الأمر غير صحيح ويدل على عدم صحته أمور؛ أولًا: عنوان الكتاب؛ فعنوان الكتاب (الإعلام بمناقب الإسلام) فهو يقصد إلى مناقب الإسلام.

الأمر الثاني: الفصول التي كان يذكرها في الكتاب، ومن الفصول التي كانت يذكرها قوله: (فصل في فضيلة الإسلام بحسب الأركان الاعتقاديَّة)، فهو الآن يريد أن يبيّن فضل الإسلام وليس مجرَّد مقارنه بين الإسلام وغيره.

وما ذكرته هنا ليس تزكية مطلقة لمشروع العامري ولا للعامري نفسه؛ لأن العامري نفسه فيه إشكاليات كثيرة، وهو يُصنَّف ضمن الفلاسفة الذين لديهم بعض التَّصوُّرات التي ليست منضبطة، ولكن هو مُنتسِب للإسلام ومن أهل الإسلام وضمن المنظومة الإسلامية، فهو يدخل في المنظومة التي نحن نحللها.

- **المنهج الثالث: منهج النَّقد التَّفصيلي.**

ومعنى هذا المنهج أنَّ المؤلِّف يقصد إلى نقد الأديان المنحرفة تفصيلًا وليس مجرد مقارنة أو مجرد وصف، وهذا المنهج سلكه كثير من علماء الإسلام، واختلفت مساراتهم؛ منهم من يمارس منهج **النَّقد التفصيلي لدين واحد فقط**، بعض الكتب التي أُلِّفت في نقد دين النصارى ككتاب القرطبي (الإعلام بما في دين النصارى من أوهام)، أو كتاب القرافي أو غيرها من الكتب.

والمسلك الثاني: **منهج النقد التفصيلي الجَمْعيّ**، الذي يقصد إلى نقد أديان متعددة، ومن أشهر ذلك ابن الحزم في كتابه (الفِصَل)، وابن الحزم -بالمناسبة- في كتابه (الفصل) له منهج متفرِّد لا يوجد عند أحدٍ من علماء الإسلام، بل كان متفوقًا كما يبدو على جميع علماء الإسلام في دراسة الأديان، سواءً في الاعتماد على المصادر الأصليَّة، ويبدو أنه لا يوجد أحد

من علماء الإسلام اعتمد على التوراة مثلما اعتمد ابن حزم، بل كان يقارن بين نُسخ التوراة ويُحدث بينها مقارنة ونقدًا، فهو منهج مُتَفرِّد ويستحق فعلًا الدراسة والوقوف عليه بشكل مطوَّل.

إذًا هذه أهم المناهج التي سلكها علماء الإسلام في دراستهم الأديان، وهي تُبيّن ثراء علماء الإسلام وأنهم مارسوا أنواعًا من المناهج المختلفة.

تبقى قضيه أخرى لا بد أن أشير إليها وهي: **القواسم المشتركة بين علماء الإسلام في دراسة الأديان.**

هناك قواسم مشتركة كثيرة ولكن سأذكر قاسمين أساسيين:

القاسم الأول: أن الأديان عند علماء الإسلام ليست متساوية، هم ينطلقون في دراستهم للأديان من أن الأديان ليست سواء، وأنَّ دين الإسلام هو دين الحق، وهذا الانطلاق سيؤثّر في كثير من معايير المقارنة ومعايير الدراسة.

وسيأتي معنا أنَّ هذا الانطلاق لا يُنافي الموضوعيَّة؛ لأنه ما من أحد يدرس الأديان إلا ولديه منطلق ينطلق منه، سواءً سمَّاه دينًا أو فلسفة أو سمَّاه تجرُّدًا، ربما يسميه تجردًا وهو في الحقيقة عنده مُنطلقات.

القاسم الثاني: أن التوحيد والعبودية لله هي المعيار الأعظم الذي تُحاكم إليه الأديان،

وسيأتي أنَّ هذا موطن افتراق حقيقي بين المنظومة الإسلامية والمنظومة الغربية.

• المسألة السابعة: قصة علم الأديان في الفكر الغربي

هذه القصة طويلة جدًا ومتشابكة ومتداخلة، وكنت مترددًا في إدخالها، ولكن ضرورات التَّأصيل تقتضي منا أن تُدخَل هذه القصة ولو بالإشارة لبعض معالمها الأساسية.

وبناءً عليه فقصة الأديان في العلم الغربي تتعلَّق بها مسائل متعددة منها:

- **نشأه علم الأديان في الفكر الغربي؛ تاريخها، وطبيعتها.**
- **ثانيًا: تطورات علم الأديان في الفكر الغربي ومراحله.**
- **ثالثًا: مدارس علم الأديان في الفكر الغربي واتجاهاتها.**
- **رابعًا: الأصول التي تقوم عليها المدارس ومنطلقاتها.**

وكل هذه الأربع في غاية الطُّول وفي غاية التَّعقيد والتَّشابك بين المسائل.

والغريب أنني لم أقِف حتى الآن على كتاب عربي حاول أن يدرس علم الأديان في الفكر الغربي، وإنما دائمًا يذكرون شَذَرات قليلة، مع أن دراسة هذه القصة من أهم ما يكون علينا نحن؛ لا لنستفيد منها فقط في بعض الجوانب، وإنما حتى نكشف عن مواطن الخلل في هذه المنظومة -كما سيأتي معنا التَّمثيل على ذلك-.

نحن لا نستطيع في الحقيقة أن نقف على كل هذه التفصيلات الأربع؛ لأنها لا تحتاج محاضرة ما بين المغرب والعشاء وإنما تحتاج محاضرة من أوَّل الشهر إلى آخره! لأن فيها تفصيلات جدًا

مطوَّلة ومعقَّدة، ولكننا سنشير إلى نشأه علم الأديان عند الغرب وأهم الاتجاهات التي سلكها علم الأديان في الفكر الغرب.

▪ نشأة علم الأديان في الغرب

أما نشأة علم الأديان في الغرب فأوَّل نشأة له كانت في **القرن الثامن عشر الميلادي**، قبل ذلك لا يكاد يوجد علم مستقل حقيقي واضح المعالم في الفكر الغربي؛ لأن الكنيسة كانت مُسيطرة على كل شيء فالحق ما تُقرِّره الكنيسة والباطل ما ترفضه الكنيسة.

ولكن في الفكر الغربي حين طفِق الناس في العالم الغربي يثورون على الكنيسة تشكَّلت علوم مستقلة عن الكنيسة، ومن العلوم التي تشكَّلت علم دراسة الأديان، فهذا العلم تشكَّل في أجواء صراعيَّة، هذا بُعد لا ينبغي أن يُنسى؛ علم دراسة الأديان في الغرب تشكَّل في أجواء صِراعيَّة مُحتدِمة جدًا بين الأديان وبين النَّافرين من الأديان.

وهذه الحالة والأجواء الصراعيَّة أثَّرت تأثيرًا بالغًا في المسارات الأخرى التي جاءت بعد هذا التاريخ، فأصبح علم الأديان في كثير من مدارسه مُتنكِّرٌ للدين نفسه، بل هو يقوم على أصولٍ علمانية، يريدون أن يدرسوا الأديان ولكن بأصول علمانية، فحصلت إشكاليات منهجية عميقة في علم الأديان في المنظومة الغربية.

وسبب ذلك طبيعة نشأته؛ فالطبيعة التي نشأ فيها طبيعة صراعيَّة مُحتدِمة مع أهل الأديان أنفسهم، فمن الطبيعي أن تكون لدى علماء الأديان ردَّة فِعل على الدين وعلى أتباعه.

علماء الغرب في القرن الثامن عشر انطلقوا من جزئية معيَّنة في الأديان ثم توسَّعوا؛ انطلقوا من جزئية المقارنة بين الأديان –كما سبقت الإشارة إلى ذلك–، فاكتشفوا بأن كثيرًا من الأديان مليئة بالخرافات والأساطير، فرجعوا إلى الكنيسة وقالو أنتم كنتم تصوِّرون لنا أنه لا دين إلا دينكم فاكتشفنا أنه توجد أديان أخرى غير المسيحية، فما الذي يضمن لنا أنَّ دين المسيحية هو الصحيح؟!

هذا أول سؤال، ثم أخذوا يُناقشون في أدلة صحة الأديان، ثم بعد ذلك طفقوا في تتبُّع مراحل تطوُّرات الأديان، وأخذوا يدرسون كثيرًا من الأديان، وركَّزوا على الأديان القديمة البِدائية الخرافية، ولهذا لا يعتمدون على الإسلام كثيرًا في دراساتهم وإنما اعتمادهم مثلًا على البوذية أكثر من اعتمادهم على الإسلام، إذا أرادوا أن يُقارنوا أو يدرسوا طبيعة الأديان يعتمدون على البوذية أكثر من الإسلام؛ لأنهم ذهبوا إلى الأديان القديمة الشرقية وأخذوا يحللونها حتى يستخرجوا طبيعة الدين، وقارنوا أو ساوَوْا بين كل الأديان في مصادرها وطبيعتها وتشريعاتها.

هذه القضية الأولى؛ طبيعة نشأة الأديان وهذه خلاصة مختصرة جدًا عن الأجواء التي نشأ فيها علم الأديان.

▪ القضية الثانية: اتجاهات علم الأديان في الفكر الغربي

تحديد هذه الاتجاهات اختلفت فيها مسارات الباحثين؛ فمنهم من يذكر ثلاث اتجاهات، ومنهم من يذكر اثنين، ومنهم من يذكر خمسة، لكن يمكن أن نقول كتلخيص موجز جدًا: إن مدارس علم الأديان في الفكر الغربي تنقسم إلى مسارين أساسيين:

المسار الأول: الاتجاه اللاهوتي؛ وهو الاتجاه الذي يدرس الأديان مع التَّسليم بصحتها -يعني في الجملة وليس بصحة كل الأديان-، والانتماء إلى بعضها.

وهذا الاتجاه يمثله علماء النصارى الذين تخصَّصوا في علم الأديان في الغرب ويمثله كثير من المستشرقين.

الاتجاه الثاني: الاتجاه العلماني أو الاتجاه اللاديني؛ وهو الاتجاه الذي ينطلق في دراسة الأديان من المعاداة للأديان وعدم الانتماء إلى أي دين، وهو الاتجاه الأكثر انتشارًا في الفكر الغربي وحتى في الجامعات الغربية الأكاديمية.

وهذا الاتجاه العلماني تحته مدارس كثيرة جدًا، ويمكن أن يصنف تصنيفات كثيرة، ولكن يمكن أن نقول بأن المدارس أو المناهج التي تندرج تحته أهمها خمس مناهج، وأنا في هذه الخمس مقلِّد لأحد الباحثين المتميزين وهو (دين محمد محمد ميرا)، وهو أحد الباحثين المسلمين المتميزين جدًا، وهو سريلانكي، وهو الذي ذكر هذه المناهج الخمسة:

- المنهج الأول: **المنهج التاريخي**؛ والمراد به هو المنهج الذي يعتمد على الوصف التاريخي المجرد في دراسة الأديان.
- المنهج الثاني: **المنهج الاجتماعي**؛ وهو المنهج الذي ينطلق في دراسة الدين من أنه ظاهرة اجتماعية لا تختلف عن أي ظاهرة أخرى في طبيعتها وأسبابها وموجباتها، ويهتم به في العادة علم الاجتماع الديني، وقد أُلِّفت فيه كتب كثيرة بهذا العنوان (علم الاجتماع الديني).

- المنهج الثالث: **المنهج النفسي**؛ وهو المنهج الذي ينطلق في دراسة الدين من كونه شعورًا نفسيًا لا يختلف عن أي شعورٍ نفسيٍ آخر في طبيعته وفي دوافعه وفي مؤثراته، لا يختلف عن شعور الحب، وشعور البغض، وغيرها من تلك المشاعر.

ويهتم بهذا المنهج في العادة علماء النفس، ويُكتب فيه في العادة، وكُتبت فيه كتب كثر، (علم النفس الديني) وهناك كتب متعددة بهذا العنوان.

- المنهج الرابع: **المنهج الفلسفي**؛ وهو المنهج الذي ينطلق في دراسة الدين من الأصول المنهجية التأمُّلية التي يؤمن بها الدارس للأديان، سواء كان منهجًا تجريبيًا أو منهجًا عقليًا أو منهجًا واقعيًا أو منهجًا مثاليًا، المناهج الفلسفية المشهورة.
- المنهج الخامس: **المنهج الظَّاهِرَاتي**؛ وهذا المنهج هو من أهم المناهج، وعليه أكثر علماء الغرب الآن، وهو أيضًا من أصعب المناهج تعريفًا، حتى قال بعض علماء الأديان: "إذا أردت أن تكتب ورقة واحدة في بيان المنهج الظَّاهراتي لن تستطيع لكثرة الاختلافات فيه".

ولكن يمكن أن يُقال في تعريفه: هو المنهج الذي ينطلق في دراسة الأديان من ظواهرها الكلية لينفُذ إلى حقيقتها وطبيعتها ومنابعها الخفيَّة، من غير أن يعتمد الباحث على أيِّ فَرَضٍ سابق مهما كانت حقيقة هذا الفرض، سواء كان فرضًا دينيًا أو فرضًا فلسفيًا أو نحو ذلك.

هذه أهم المناهج التي يعتمد عليها علماء الأديان في دراسة الأديان.

وهذه التعريفات التي ذكرتها ليست تعريفات جامعة مانعة، وإنما هي تعريفات تقريبيَّة؛ لأن الوصول إلى التعريف الجامع المانع في كل منهج من الصعوبة بمكان، ويحتاج إلى تفصيلات كثيرة، وفيها أصلًا خلافات كثيرة واتجاهات في كل منهج.

إذًا هذه التعريفات التي ذكرتها هي تعريفات تقريبيَّة وليست تعريفات جامعة مانعة.

بالمناسبة كل منهج من هذه المناهج له طبيعة خاصة، ورؤية خاصة، وأهداف خاصة، ومصادر خاصة، بل الغريب أن كل منهج من هذه المناهج أصبح علمًا مستقلًا في الجامعات الغربية.

هذه صورة مختصرة عن قصة علم الأديان في الغرب.

• المسألة الثامنة: الإشكاليَّات المنهجية التي وقع فيها علماء الغرب في دراسة علم الأديان

وهي في نظري من أخطر المسائل مع المسألة الثانية: مكونات علم الدين.

وهذه المسألة الثامنة من أخطر المسائل، وإن كانت كل المسائل التي ذكرتها خطيرة، وبالمناسبة كلمة (خطيرة) تعني: مهمة ولا تعني الخوف، هذه في لغة العرب؛ مسألة خطيرة، أمر خطير، يعني: أمر مهم.

علم الأديان في الغرب لا يمثل الحالة الرَّاشدة لهذا العلم؛ لأن فيه إشكاليات كثيرة جدًا منهجية وعميقة جدًا في تفاصيله، فهو في الحقيقة في الغرب علم منحرِف وليس علمًا راشدًا، وهذا يردُّ على من يدعُون إلى أن نتبنَّى النظريات الغربية في علم الأديان، بل يدْعُون إلى أن نُكر على من ينقل إلينا هذا العلم بكل ما فيه من تفاصيل وكل ما فيه من أفكار من غير أن يكون لديه رؤية نقدية.

وإدراك هذه الإشكاليَّات التي سنذكرها الآن من الإشكاليات المنهجية من أهمّ ما ينبغي على طالب العلم الشرعي القاصد لدراسة علم الأديان؛ لأنه كما ذكرتُ لكم أن علم الأديان الغربي علم حاضر لا يمكن أن نتخلَّص منه من حيث الحضور، وبناءً عليه لا بد أن تكون لدينا أصول ننطلق منها في تقييمه وفي بيان مواطن الخلل فيه؛ حتى يمكننا أن نميز بين ما يمكن أن

نستفيد منه في المواطن الصحيحة، لأنه ليس كل علم الأديان عند الغرب خاطئًا، وما يمكن أن ننقده ونتخلص منه.

والإشكاليات المنهجيَّة التي وقع فيها علماء الغرب في دراسة الأديان كثيرة سنقتصر على عشرة إشكاليات في هذه المقدمة.

ومن الآن أقول أن هذه الإشكاليات التي سأذكرها أيضًا إشكاليات تحتاج إلى تفصيلات كثيرة، لكنّي سأقتصر على القدر المُجزِئ في بيانها، وإلاّ ففيها نُقول وفيها توثيقات وفيها تفصيلات أخرى كثيرة لا يُسعفنا الوقت لذكرها.

▪ الإشكالية الأولى: الاعتماد على المعلومات الناقصة في دراسة الأديان وتحليلها.

فقد اعتمد الدارسون العلمانيون للأديان في دراستهم على المجتمعات الإنسانية القديمة حتى يحدّدوا طبيعة الدين الأول كيف نشأت الدين الأول.

ولكننا نحن المعاصرون الآن لا نملك عن تلك المجتمعات إلا معلومات نَزِرةً قليلة، ولهذا كان اعتمادهم على الخيال والحدس أكثر من اعتمادهم على المعلومات الموضوعية، ومن المعلوم أن الخيال أو الحدس لا يكوِّن علمًا منضبطًا يقينيًا، وإنما ظُنون، فكيف يُلزَم المخالف بالظنون؟!

وقد نبَّه على هذه الإشكالية عدد كبير من علماء الغرب الذين درسوا الأنثروبولوجيا –الذي هو علم الإنسان القديم–، أو غيرها من العلوم الأخرى التي قصدت إلى دراسة الإنسان، نبَّهوا على هذه الإشكالية وهي نقص المعلومات.

هناك نصٌّ ظريف أحب أن أقوله بين يديكم حتى تتبيَّن لنا هذه الإشكالية، يقول أحد علماء الأديان واسمه هيرفيروسو: "علم الآثار –الذي هو علم آثار المجتمعات القديمة– من شأنه أن يُلحَظ عند أناس ما قبل التاريخ آثارًا تدفع بنا إلى وضع اليد على ممارسات ذات طبيعة دينية، ولكن معاني تلك الممارسات لا تزال مُكتَنِفة بالشك في مُجملها، ثم إنه من المُستطاع قيام الافتراضات الأكثر تناقضًا والأشد تأرجُحًا في تحرير تلك الآثار، لذلك فإن سبيل البحث عن جوهر الدين في آثار الأولين الفاصلة التي في حوزتنا أسلوب لا عدل فيه ولا أمانة"، وهناك نصوص أخرى كثيرة مقاربة لهذا النص في المعنى.

▪ الإشكالية الثانية: الانطلاق من أن الأديان مُنتَج إنساني

فعلماء الغرب العلمانيون الذين درسوا الأديان انطلقوا من هذه العقيدة؛ أن الدين ليس حقيقة تنزل إلى الإنسان من الله، وليس هو قضية فطرية فُطِر عليها الإنسان، وإنما هي مُنتَج إنساني نتج بسبب أسباب خارجية عن الإنسان إما الخوف، أو الرغبة، أو التعلق بالأرواح، أو غيرها من هذه الأسباب، وقد ذكروا أسبابًا كثيرة، وهذا أثَّر عليهم في التعامل مع الأديان.

▪ الإشكالية الثالثة: الانطلاق من المساواة بين الأديان

فجميع الدَّارسين للأديان من الاتجاه العلماني انطلقوا من هذه الرؤية؛ أن الأديان كلها سواء في الثُّبوت وفي الكتب المقدَّسة وفي التشريعات وفي التلبُّس بالخرافات وغيرها من هذه الأوصاف،

فهم يجعلون الأديان في درجة واحدة ولا يُفرّقون حتى بين قضايا وُجوديَّة ليست قضايا دينية فقط، من يقارن بين الإسلام مثلًا هذا الدين الثابت في أصوله والكتاب الموجود المقدَّس، وبين دين لا كتاب له! بين دين يتعلَّق بالأشجار! بين دين يتعلق بالأموات! بين دين يتعلق بالأحجار! وبين دين آخر تظهر فيه معالم العبودية والتوحيد بكل جلاء؟!

كل هذه يغفلون عنها ويجعلون الإسلام مساوٍ في الحقيقة وفي كل شيء مع الأديان الأخرى، فانطلقوا من هذا البُعد المنهجيّ الخطير الذي أثَّر على كثير من تحليلاتهم المتعلقة بالأديان.

▪ الإشكالية الرابعة: ضبابية الموضوع

والمراد بهذه الإشكالية أن الموضوع الذي يتعلَّق به علم الأديان عند علماء الغرب العلمانيين موضوع ضبابيٌّ غير واضح المعالم، طبعًا العلم الأديان يتعلق بالدين، فإذا أردنا أن نعرّف أو نقف على تعريف الدين عند علماء الغرب العلمانيين لا نكاد نقف على تعريف معيَّن، بل قد صرَّح بعضهم أن الدين لا يمكن أن يعرَّف؛ لأنهم ساوَوْا بين كل المظاهر التي يمكن أن تُعدَّ دينًا، فبعض المظاهر الاقتصادية جعلوها دينًا كدين الطَّوْطَم، والصحيح أن الطوطم ليس دينًا وإنما هو نظام اقتصادي، فجعلوه دينًا.

فلما لم يفرّقوا بين الأديان في حقيقتها اضَّطرب عليهم مفهوم الدين، فأصبح الموضوع الذي يتعلَّق به علم الدين موضوعًا ضبابيًا، فإذا كان موضوع العلم ضبابيًا فكيف يمكن أن نصل إلى نتيجة واضحة المعالم في هذا العلم؟!

■ الإشكالية الخامسة: الانطلاق من المادية والمعاداة للأديان

الدارسون للأديان في الفكر الغربي وخاصَّة الاتجاه العلماني –ونحن نتحدَّث عن الاتجاه العلماني– انطلقوا من هذا المنطلق، وهو أن الأديان أصلًا محلُّ تُهمة، وبناءً عليه لا نعتمد على مصادر الأديان في فهم الأديان ولا في فهم التاريخ الأديان؛ يعني لا نعتمد مثلًا على نصوص الكتاب والسنة لدينا نحن أهل الإسلام في معرفة بعض الأديان الموجودة في العالم، لأن نصوص الكتاب والسنة عندهم محل تهمة والاعتماد عليها منافٍ للموضوعية، فانطلقوا من الأديان فجعلوها في زاوية الاتهام وأرادوا دراستها من هذه الزاوية.

والصحيح أن المصادر التي يُعتمد عليها في دراسة الأديان متنوعة منها مصادر وُجوديَّة؛ أحافير وآثار ليست لدينا مشكلة فيها، وأيضًا مصادر دينية، بل المصادر الدينية عندنا أوثق؛ لأنهم مثلًا حين يدرسون النبوة لا يجدون ذِكرًا للنبوة في بعض البلدان أو بعض القارات في الأرض، ولكن النص الشرعي عندنا يقول: ﴿وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾.

فطالب علم الأديان إن أراد أن ينطلق من الرؤية الغربية لدراسة الأديان ستكون هذه القضية محل إشكال لديه، لكن إن كان ينطلق من المنظومة الإسلامية ستكون الرؤية عنده أوضح ومختلفة عن الرؤية الغربية.

▪ الإشكالية السادسة: الاعتماد على فرضية التطور

جميع علماء الأديان العلمانيين في الغرب الذين درسوا الأديان انطلقوا من هذه الفرضية، وهي أنَّ العالم كله بحياته البيولوجية وحياته الإنسانية والأخلاقية وغيرها وكلها كانت تعيش حالة تطوُّر تصاعدي؛ يعني أنها ترتقِّى من الأدنى إلى الأعلى، من البسيط إلى المركب، من المفرد إلى المركب، وبناء عليه فإنَّ الأديان تطوَّرت؛ إما من الشرك للتوحيد كما يقولون، أو من البساطة والتعلُّق بالآلهة الأرضية إلى التعلُّق بالآلهة السماوية، فكانت هذه القاعدة لديهم منطلقًا من أهم المنطلقات التي يعتمدون عليها في دراستهم للأديان.

والحقيقة أن هذا منطلق خاطئ؛ لأن أصلًا نظرية التطور الصحيح أنها لم تثبت حتى الآن، وعليها إشكالات كثيرة جدًا، فكيف يُجعل أصلٌ محل إشكالٍ لدراسة الأديان؟!

ثم إنَّ الآثار التاريخية أثبتت كثيرًا أن الشعوب في الحقيقة لم تكن تتطوَّر تطورًا تصاعديًا، بل هي حِقَبٌ مُتَعَاقِبة، بعض الحقب أرقى من بعض، وبعض الحقب أقل من بعض.

وقد نبّه على ذلك عدد من علماء الأديان بأن التطور التصاعدي الذي ينطلق منه علماء الأديان خرافة وليس حقيقة، وإنما هي مجرد خرافة اعتمدوا عليها.

▪ الإشكالية السابعة: تزعزُع الركائز الأساسية

من أهم الركائز التي يعتمد عليها علماء الغرب في دراسة الأديان مفهوم (الشُّعوب البِدائية)، وهذا المفهوم من أكثر المفاهيم اضطرابًا وغموضًا في العالم في الفكر الغربي، بل لا يكاد يوجد له تعريف، ما هي الشعوب البدائية؟

بل قد توصَّل عدد من الباحثين إلى أن مفهوم البدائيَّة مفهوم مُضلِّل، وأنه لا يدلُّ على معانٍ محقَّقة، بل إنه متضمِّنٌ لمغالطات كثيرة وقائم على مسلَّمات وافتراضات لا دليل عليها، فأثبتوا أن مفهوم البدائية مفهوم غامض يعسُر جدًا بيان المراد منه.

وقد اختلف الدَّارسون في تعريفه إلى أكثر من ثلاثة وعشرين قولًا في تعريف مفهوم البدائية، وقال بعض الباحثين أن تعريف البدائية كما يستعملها الأنثروبولوجي أمر بالغ الصعوبة، بل إن بعض الكُتّاب يستعمل الكلمة في عنوان الكتاب ثم لا يكاد يستعملها في المتن –يعني بنفس المفهوم– إلاّ لَمَمًا. ويقول آخر: "يصعُب على أيَّ كاتب أن يحدد ما يعنيه بكلمة (بدائية)".

ومع ذلك فإن مفهوم البدائية من أحد المرتكزات التي يعتمد عليها علماء الغرب في دراسة الأديان وهو مفهوم مضلِّل مضطرب.

▪ الإشكالية الثامنة: اضطراب المناهج وتضاربها

فإنَّ علم الأديان في الفكر الغربي يعاني من تضارب شديد في المنهجيات البحثية المعتمدة في دراسة الأديان وتحليلها، وتشكلَّت فيه مدارس كثيرة، بل قد توصل بعض الباحثين إلى أنَّ علم

الأديان في الفكر الغربي بلا منهج، وبلا هوية منهجية؛ وذلك لكثرة ما فيه من المناهج المضَّطربة، منهج يخرج ثم يتحوَّل نفسُ المنهج إلى علم، وهذا العلم يتفرَّع إلى مناهج أخرى وكل منهج أصحابه ينتقدون المنهج الآخر.

فهو علم بلا منهج جامع مانع، كل منهج من المناهج فيه يعتقد أن المنهج الآخر باطل ويقوم بنقده. بخلاف علماء الإسلام فإن المناهج لديهم متضافرة وليست متصارعة.

والسبب والخلل المنهجيُّ الذي انطلقوا منه أنهم انطلقوا من مغالطة أخرى وهي التوحُّد في المناهج، فلما انطلقوا من أنه يجب أن تتوحَّد المناهج اعتقد كل واحد أن منهجه هو المنهج الصحيح. والصحيح أن دراسة علم الأديان ممكن أن تتعدَّد في المناهج ولا تتناقض.

وقد أحسن المفكر الإسلامي عباس محمود العقاد في التَّنبيه علي هذه الجزئية، يقول: "علم المقارنة بين الأديان يسمَّى علمًا مع الحَيْطة المتفاهم عليها بين الباحثين والقراء؛ لأنه من المعارف التي يُقيمُها المشتغلون به على أُسس مختلفة كاختلافهم في العقيدة وفي النظر وفي غيرها من المسائل"؛ يعني كلُّ واحد يقيمه بناء على أُسسه المختلفة.

بل زيادة على ذلك أن **علم الأديان من أشد العلوم التي تأثرت بالاتجاهات السياسية**؛ فتضارُب المناهج في علم الأديان له اسباب كثيرة، منها اختلاف الأديان ومنها الاختلاف في الاتجاهات السياسية، وهناك تقريرات كثيرة لعلماء الأنثروبولوجيا نصُّوا فيها على ذلك، وهي مبثوثة في عدد من الكتب الأديان.

▪ الإشكالية التاسعة: الاختلال في قضية الأثر والتأثُّر

فإن علماء الأديان في الغرب انطلقوا من مسلَّمة خاطئة في قضية الأثر والتأثُّر، وهي أنَّ التّأثُّر يثبت بمجرَّد الأسبقيَّة؛ فإذا وجدوا في دين الإسلام الصلاة مثلًا ثم وجدوها في دين سابق قالوا: إن الإسلام متأثر بالدين السابق، وما هو الدليل؟ لأن الدين السابق سابق على الإسلام!

وهذه من أكثر القضايا التي يعتمدون عليها في تحليل الأديان؛ فإن قضيَّة التأثر والتأثير لديهم واسعة جدًا إلى درجة أنهم يعتمدون على مجرَّد الأسبقية فقط، **فوقعوا في مغالطة منطقية تسمى (التَّرابط الزَّائف)**؛ ومعنى هذه المغالطة: أن يربط الإنسان بين شيئين لا ترابط بينهما في الحقيقة، مثل أن يكون رجل جالس فيمر عليه شخص لابسٌ ثوبًا أسود، ثم يمر عليه شخصٌ ثانٍ بعد عشر دقائق يلبس ثوبًا أسود، ثم يمر عليه شخص ثالث يلبس ثوبًا أسود، فقال: إن الثالث متأثر بالأول، ما هو الدليل يا عزيزي؟ قال: لأنه جاء بعد الأول!

نفس المنهجيَّة حين جاءوا إلى منظومة الأديان فحلَّلوها فوجدوا بعض السابقين قرَّروا الصلاة والزكاة وغيرها فقالوا: الإسلام متأثِّرٌ بها.

وبالمناسبة هذه ليست قليلة الاستعمال بل ما من شعيرة من شعائر الإسلام إلا وقد ادُّعي فيها أنها مأخوذة من دين سابق، معنى هذا أنَّ النبي -صلى الله عليه وسلم- كانت عنده مكتبة كبيرة جدًا فيها كتب اليونان وكتب الفرس وغيرهم، وأنه يعرف كل اللغات حتى يأخذ هذه الشعائر من تلك الأديان!

فوقعوا في مغالطات مغالطة (الترابط الزائف)، وهذه واضحة جدًا في هذه الإشكالية.

▪ الإشكالية العاشرة: الخضوع للعنصريَّة

فكثير من الدَّارسين للأديان في الفكر الغربي ينطلقون من أن الشعوب الغربية أفضل من غيرها، وأنَّ الشعب الآري أفضل من غيره وأرفع إنسانية وأرفع عقلًا وغيرها من تلك الأمور، وبناءً عليه فالحالة التي هُم فيها أكمل من الحالة التي عليها أهل الأديان الأخرى، وهذه العنصرية في تحليل الأديان والنتائج التي توصَّلوا اليها.

هذه الإشكاليات العشر أنا أزعم أني لم أُوفِها حقَّها لأن فيها تفصيلات كثيرة، وينبغي أن نذكر عليها أمثلة وتقريرات وإقرارات من علماء الأديان، ولكن أردتُ أن أنبّه على هذه الإشكاليات الحقيقية التي تلبَّست بها الدراسات الغربية في علم الأديان.

• المسالة التاسعة: الفروق المنهجية بين علم الأديان في المنظومة الإسلامية وعلم الأديان في المنظومة الغربية

ونحن نحتاج للاختصارات حتى ننهي المادة كاملة..

يمكن ان يُفرَّق بين الرؤية الإسلامية في دراسة الأديان والرؤية الغربية في عدد من الأمور:

- **الأول: من جهة مصادر المعلومات والتوثيق.**

فالعلم الغربي العلماني لا يعتمد إلا على الأحافير وعلى والآثار التي تُركت عن الأمم السابقة، أما المنظومة الإسلامية فهي تعتمد على ذلك وتعتمد، أيضًا على القرآن والسنة؛ لأنه مصدر ثابت لدينا بيقين.

- **الفرق الثاني: معايير المقارنة بين الأديان.**

فالمنظومة الإسلامية من أقوى المعايير فيها معيار التوحيد والعبودية لله –سبحانه وتعالى–، وأما المنظومة الغربية فهي لا تعتمد على ذلك وإنما تعتمد على تعلُّقات أخرى غير العبودية، يعني توحيد العبودية غير حاضر لديهم.

وأيضًا من حيث **المصادر**؛ فالمنظومة الإسلامية من معايير المقارنة بين الأديان مصدر الدين الذي يعتمد عليه ما هو؟ هل هو مصدر موثوق أم مصدر خرافي؟ فهذا المُعتَمَد هو مُعتَبَر

لدينا في المنظومة الإسلامية، المنظومة الغربية لا يعتمدون على ذلك ولا يعتبرونه، وإنما يعتبرون ما تبقَّى من الآثار عن أهل هذا الدين سواءً كانت رسومات وغيرها.

▪ الفرق الثالث: معايير الحكم على الأديان.

فالمنظومة الإسلامية من أقوى المعايير لديهم **التوحيد لله**، بقاء التوحيد، هل الدين باقٍ على التوحيد لله أم لا؟ وبناء عليه يُحكم على الدين بالصحة أو البطلان، بخلاف المنظومة الغربية فهي لا تعتبر هذا المعيار.

من المعايير أيضًا **السَّلامة من التَّحريف والتَّبديل**؛ فالمنظومة الإسلامية تعتبر ذلك أن الدين إذا سَلِم من التبديل والتحريف فهو دين صحيح، أما إذا لم يسلم من ذلك فهو ليس دينًا صحيحًا. والمنظومة الغربية لا تعتمد على ذلك في التقييم والحكم.

▪ الفرق الرابع: من جهة الهدف والغاية من دراسة الأديان.

فالمنظومة الإسلامية في دراستها للأديان لها اهداف معيَّنة؛ بيان تميز الإسلام، بيان كيف تتعامل مع الآخرين في الهداية وغيرها والنقاش. وأما المنظومة الغربية العلمانية فلها هدف محدد وهو: كيف تُبطل الأديان وكيف تبيّن الأساس الإنساني الذي انطلقت منه فقط، هذا هو هدفها الأساسي. فهناك خلاف جوهري بين المنظومة الإسلامية والمنظومة الغربية في هذه الجهة.

- **والجهة الخامسة: تحديد موضوعات الأديان**

فالمنظومة الغربية تنطلق ممَّا لديها من معطيات وآثار عن الأمم السابقة، فما يجدونه يحددون بناءً عليه الموضوعات التي تدرسها الأديان. أما المنظومة الإسلامية فهي تنطلق من طبيعة دين الإسلام وتكامله، وتدرس الموضوعات التي تُقرّرها المنظومة الإسلامية.

• المسألة العاشرة: واقع علم الأديان في العالم الإسلامي

علم الأديان في العالم الإسلامي لا يمثّل الحالة الراشدة، وفيه إشكاليات كثيرة جدًا، سواءً الدراسة الأكاديمية أو الدراسة البحثيَّة العامة.

ويمكن أن نحدد أهم النواقص والإشكاليات في علم الأديان في العالم الإسلامي في الأمور التالية:

- أولًا: **ضعف الاهتمام بعلم الأديان نفسه**، فهو من العلوم المهجورة في الحقيقة.
- منها أيضًا: **عدم التكامل في دراسته**؛ يعني الدراسات التي قُرِّرت في الجامعات ليست متكاملة، وإنما يقرّرون بعض الجزئيات.
- الإشكالية الثالثة: **الوقوع في المحاكاة للفكر الغربي**، ليس في الآراء؛ فبعض المسلمين لا يختار آراء الغربيين، ولكن الوقوع في المحاكاة في ترتيب الموضوعات، وفي تحديد الموضوعات، وفي غياب المعايير، فترى بعض الباحثين المسلمين يؤلفون كتابًا في علم الأديان فيذهب إلى الفكر الغربي فيأخذ نفس الفهرست ولكن يحوله للغة العربية، وهذا الوقوع في المحاكاة من أكثر ما أضرَّ بهذا العلم.

  وأنتم تعلمون أنَّ المحاكاة ليس المراد بها أن انظر إلى الرجل ماذا قال وأقول مثله، وإنما قد أُحاكيه في طريقة حركته وطريقه تفكيره ونحو ذلك.
- الإشكالية الرابعة: **السَّلبية مع المنتَج الغربي في علم الأديان**؛ بمعنى أنه يقتصر على مجرد العَرْض، مع أنه قد يُترجِم كتابًا في علم الأديان مليئًا بالأخطاء، ولكن لديه سلبية

فلا يُعلِّق على أي خطأ، وإنما ينقل كما هو، وربما أيضًا ينقل نفس نقد الغربيين بعضهم فقط، ولا يقدم نقدًا على المنظومة الغربية، وهذه إشكالية منهجية في العالم الإسلامي.

- الإشكالية الخامسة: **ضُمور أو غياب الأصول الإسلامية المؤثِّرة في علم الأديان؛**

فقد ضعُف الانطلاق من الأصول الإسلامية في دراسة الأديان عند كثير من الباحثين، يقول أحد الباحثين اسمه أحمد شلبي وهو مشهور وكتبه دائمًا مقرَّرة، ألف: (الإسلام)، و(النصرانية) و(اليهودية)، يقول في كتابه (الإسلام): "وأُشهد لقد حاولت وبقوة وإصرار أن أجعل هذا الكتاب بحثًا علميًا لا دينيًا، أي أجعله غير متأثر بعاطفتي واعتناقي لهذا الدين"؛ هذا النص يحتمل إن قصد أني لا أتأثر بديني في تحريف المعلومات وفي نقل المعلومات وفي تحليل المعلومات، فيكون صحيحًا. أما إن قصد أني لا أتأثر بديني حتى في التقييم وحتى في معايير الحكم فلا شك أن هذا خلل، وهو ضمور أو غياب للرؤية الإسلامية.

• المسألة الأخيرة الحادية عشرة: كيف نطوّر علم الأديان؟

يمكن أن نطور علم الأديان بآليات كثيرة جدًا منها:

- **تحويل علم الأديان إلى علم حاضر بعد أن كان علمًا مهجورًا، ونكثّف تعلُّمه وتدريسه في الجامعات والمساجد وغيرها.**
- منها: **تتبُّع الأصول الإسلامية التي يجب أن تكون مؤثرة في علم الأديان وإبرازها للعيان، وذكر الأمثلة التي تُعزِّزها.**
- **جمع المعلومات القرآنية والواردة في السنة في موضوعات علم الأديان،** المادة المختلفة سواء في حكاية أقوال أهل الأديان أو في غيرها من المسائل.
- الأمر الرابع: **إحياء التراث الإسلامي المتعلّق بعلم الأديان ودراسته دراسة معمَّقة تحليلية.**
- الأمر الخامس: **تحليل الفكر الغربي المتعلق بالأديان تحليلًا معمَّقًا،** وتحديد مواطن الصحة فيه حتى يمكن أن يُستفاد منه، ومواطن الخلل والضعف حتى يمكن أن نسْلَم من هذا الخطأ ونقوم بنقده.
- الأمر السادس: **تسليط الأضواء على المشاريع الإسلامية الرائدة المعاصرة في علم الأديان؛** ومن أبرزها الهندي -رحمه الله- فهو له مشروع وطريقه منهجية مختلفة عن مناهج الآخرين، ومثل أحمد ديدات في مناقشته للنصارى فله منهج، فنحتاج أن نُبرز هذه النماذج حتى نطورها أو نستفيد منها بتطوير مشروعنا بما يتعلق بعلم الأديان.

هذه إحدى عشرة مسألة أزعم أنها من أهم ما يتعلق بعلم الأديان.

• أهم المراجع في دراسة علم الأديان

سأختم بقضيه وهي: أهم المراجع التي يمكن أن تفيدنا في علم الأديان، والمراجع كثيرة، وفي الحقيقة كثير منها غير صالح وغير نافع، ولكنني سأركز على أربعة مراجع أشعر تقدم مادة لا بأس بها في علم الأديان:

- المرجع الاول كتاب الدين محمد عبد الله دراز –رحمه الله، وهو من أفضل المراجع في هذا الباب.
- المرجع الثاني: (في علم الدين المقارن مقالات في المنهج) المؤلف دين محمد محمد ميرا، باحث سيريلانكي، اشتغل في قطر، من أميز الباحثين في علم الأديان، وكتابه من أفضل الكتب النقدية في علم الأديان.
- الكتاب الثالث: (مدخل إلى فلسفة الدين) مصطفى النشار، الدار اللبنانية.
- الكتاب الرابع: (مدخل إلى فلسفة الدين) لعثمان الخِشت، طُبع قديمًا، وكتابات عثمان الخشت ليست جيدة، ولكن هذا الكتاب كان في كثير مباحثه ممتاز ورائع.

هذا ما لديّ.. وأسأل الله –عز وجل– أن ييسرنا لإدراك الحق وإصابته..

والله أعلم، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين..

مع تحيات فريق مشروع التفريغ ☺

لمزيد من المعلومات الرجاء زيارة هذا الرابط:

http://www.shbaboma.com/vb/forumdisplay.php?f=87